كرامات الأولياء بين الإثبات والإنكار

فرقنيس رياض جامعة بجاية، الجزائر.

الملخص:

معلوم أن رجال الدين و فقهاء المذاهب الإسلامية على وفاق بشأن مسألة جريان الخوارق من العادات و المعجزات على أيدي الأنبياء والرسل عليهم السلام. كون إثبات صدق النبي من عدمه إنما قائم على قدرته على خرق العادات و نقض المألوف، وهذا بالإتيان بالمعجزات التي تمنح له المصداقية في دعواه، والآيات القرآنية مليئة بالشواهد على صحة و ثبوت معجزات الأنبياء و الرسل عليهم السلام، غير أن الخلاف احتدم حول مسألة جريان هذه الخوارق المناقضة للمألوف على أيدي الأولياء و الصالحين، وهي ما يطلق عليها بالكرامات.

في هذا البحث سنحاول رصد الآراء المتباينة حول مسألة جواز الكرامات و ما يلتصق بها من الأفعال الخارقة. و هذا بإبراز آراء المثبتين لها مع إبراز أهم الدلائل التي يسوقونها لنصرة مذهبهم و ترجيح رأيهم ، بالمقابل سنعرض الرأي الآخر المخالف، و الذي ينفي جريان الخارق على غير الأنبياء و الرسل. مبرزين أهم الأدلة التي يستند إليها هذا الرأي في مسعاه لنفي الخوارق و الكرامات على الصالحين من عباد الله.

الكلمات الدلالية : الخارق للعادة، النبي، الولي، المعجزة، الكرامة، الإثبات، الإنكار.

Abstract:

It is known that the clerics and scholars of the Islamic schools are in an agreement concerning the flow of paranormal and miraculous events caused by the prophets and messengers, peace be upon them. The proof of whether the prophet is credible or not, is based on his ability to defy the ordinary and cause the unusual, and that is by bringing miracles that can give credibility to his claim. And the Quran verses are full of evidence that proves the legitimacy of the prophets of Allah. However, a dispute raged over the question of the flow of these paranormal and unusual phenomena at the hands of the fathers and the righteous, which are called the Karamat.

In this research, we will try to observe the divergent views on the issue of permissibility of the Karamat, and what adheres to it from the supernatural acts. And this will be by highlighting the views of those who affirm it, along with identifying their arguments to defend their doctrine. On the other hand, we will examine the opposing opinions of those who deny any paranormal phenomena other than those of the prophets and messengers, as we will highlight their arguments to debunk the Karamat of the fathers and the righteous.

Keywords: Paranormal; Prophet; the Father; Miracle; Karama; Affirm; Deny.

1- مفهوم الكرامة

يتفق أهل اللّغة أنّ مادة (كَرَمَ) تحمل في ثناياها معنى الإكرام لصاحبها، إذ ورد في لسان العرب لابن منظور: «والكرامة اسم يوضع للإكرام، كما وضعت الطاعة موضع الإطاعة، والغارة موضع الإغارة، والمُكْرِمُ: الرجل الكريم على كل أحد»1.وفي القاموس المحيط : «الكَرَمُ محركةً ضدّ اللؤم»2 ويضيف: « وأكرمه وكرّمه عظمه ونزّهه والكريم الصفوح ورجل مكرامُ مكرمٌ للناس وله كَرَامَة أي عزازة واستكرم الشيء طلبه كريمًا ووجده كريمًا»3.

وفي أساس البلاغة للزمخشري ورد في مادة ك . ر. م : « كَرُمَ علينا فلان كرامة وأكرمه الله وكرّمه. وأكرم نفسه بالتقوى، وأكرمها عن المعاصي »4

إن معاجم اللغة تتفق إذن في أن الكرامة هي كل الأفعال الحسنة والأخلاق الرفيعة، فهي ضد اللؤم والخبائث، وهي مبالغة عن الكَرَمِ المحمود عند الجميع.

أما اصطلاحا فقد عرفها الشيخ المناوي : «الكرامة ظهور أمر خارق للعادة على يد الولي مقرون بالطاعة والعرفان، بلا دعوى نبوة، وتكون للدلالة على صدقه وفضله، أو لقوة يقين صاحبها أو غيره»5. فالشيخ المناوي يقر بحقية الولي الصالح بحدوث الكرامة معه و هي الفعل الخارق للعادة، لكنه يضع شرط عدم اقتران فعله الخارق بدعوى نبوة.

ويعرفها اللقاني على أنها: «أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة، ولا هو مقدمة لها، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبيّ كلف بشريعته، مصحوب بصحيح الإعتقاد والعمل الصالح، علم بها أو لم يعلم»6.

ويعرفها الكلاباذي بقوله: « وكرامة الولي إجابة دعوة وتمام حال وقوة على فعل وكفاية مؤونة يقوم لهم الحق بها وهي مما يخرج عن العادات ومعجزات الأنبياء اخراج الشيء من العدم إلى الوجود وتقليب الأعيان»7

---

1 مُحَمَّد ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج 01، ص 512

2 الفيروزآبادي: القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1980، ج4، ص 168

3 نفسه، الصفحة نفسها

4 أبو القاسم الزمخشري: أساس البلاغة، تح : مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص 131

5 زين الدين المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تح : مُحَمَّد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، ج 01، ص 5

6 برهان الدين اللقاني: شرح الناظم على الجوهرة، تح: مروان حسن عبد الصالحين البجاوي، دار البصائر، القاهرة ،2009

7 أبو بكرالكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، نشر و تص: آرثر جون آربري، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994،ص 46

وأورد القشيري في رسالته أن الكرامات: « قد تكون إجابة دعوة، وقد تكون إظهار طعام في أوان فاقة من غير سبب ظاهر، أو حصول ماء في زمن عطش، أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة، أو تخليصا من عدو، أو سماع خطاب من هاتف أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة»1

وفي لطائف المنن لابن عطاء السكندري أورد أنّ « هذه الكرامات قد تكون طيّا للأرض ومشيا على الماء، وطيرانا في الهواء، واطلاعا على كوائن كانت وكوائن بعد لم تكن من غير طريق العادة، وتكثيرا لطعام أو شراب، أو إتيانا بثمرة في غير إبانها أو اتباع ماء من غير حفر، أو تسخير حيوانات عادية، أو إجابة دعوة بإتيان مطر في غير وقته، أو صبرا عن الغذاء مدة تخرج عن طور العادة أو ثمارا لشجرة يابسة ما ليس عادتها أن تكون مثمرة له، وهذه كلها كرامات ظاهرة حسية»2.

ووفق كل هذا فللكرامة مفاهيم متعددة لدى القدماء والمحدثين غير أن كل هذه التعريفات تتداخل وتلتقي فيما بينها، في كون الكرامة « أنها خرقت العادة وخالفت مقتضاها، وجاءت على خلاف مألوف الآدميين، كإحياء ميت وانفجار الماء من بين الأصابع».3 فهي خوارق حاصلة على أيدي صفوة من المؤمنين خصّهم الله من بين خلقه وهم الأولياء. الذين جاءت أفعالهم خارجة عن عادة القوم وفاقت طاقاتهم الفكرية والعضوية.

2 – الكرامة الصوفية و المعجزة :

الكرامة ظاهرة متجذرة في الفكر الإنساني الثقافي/ الديني وهي تحاكي أنماطا سابقة في الوجود كالنمط السحري/ الأسطوري والنمط النبوي ولها من الأبعاد العجائبية الشيء الكثير، غير أن لها طابع خاص مغاير تماما للعجيب الأدبي. وما يهمنا في هذا الباب هو إبراز الإختلافات الجوهرية بين المعجزة والكرامة من جهة، وبين النبي والوحي من جهة أخرى، مع تحديد مواطن الإلتقاء فيما بينها.

أ – أوجه الإلتقاء :

تلتقي الكرامة والمعجزة في كونهما أفعالا ناقضة للعادة وخارجة عن نطاق المألوف، وأفعالهما من جنس الخوارق المستعصية على البشر، وذلك بخرق عادة الطبيعة وقطع عقباتها.

والكرامة محاكاة للمعجزة وامتداد لمعجزات الأنبياء. فالكرامات لاحقة بمعجزات نبي كل أمّة فلولا صدق الرسل والأنبياء لما ظهرت كرامات على أيدي من اتبعهم، فـ «النبوة التي انقطعت، إذن هي نبوة

1 أبو القاسم عبد الكريم القشيري : الرسالة القشيرية، حواشي: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001، ص 381

2 ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن، تح: عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، 2006، ص 66

3 عبد العزيز الرشيد: التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية، دار الرشيد للنشر و التوزيع، الرياض، 1995، ص 310

التشريع وحدها، نبوة الحدود والأحكام، أما النبوة العامة، أو الولاية فهي نبوة المعرفة، نبوة الإلهام والعرفان، وهي لم تنقطع بل مستمرة في شخص الأولياء»1

وقد تختلط المعجزة بالكرامة كما ورد في التنزيل الحكيم في سورة مريم: « يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونَ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عَتِيًّا "(مريم:7-8) .

فالله الذي وهب زكريا ابنه يحي وهو على كبره ورغم عقم زوجته. دليل على تمازج المعجزة بالكرامة، فإنجاب سيدنا زكريا على كبره معجزة بالنسبة للنبي وهو كرامة لزوجته العاقر.

ب – أوجه الاختلاف :

سعت مجمل التعاريف المقدمة للكرامة إلى ضرورة التمييز بينها وبين المعجزة. إذ يظهر الفرق بين المعجزة والكرامة في كون الأولى يخص بها الله عباده من الرسل والنبيين دلالة على صدق ما ادعوه من نبوة، وقرينة على رسالاتهم التي حملوها، وتأييدا ربانيا لهم. « وأما الأولياء فإنهم إذا ظهرت لهم من كرامات الله شيء ازدادوا لله تذللا وخضوعا وخشية واستكانة وازراء بنفوسهم وإيجابا لحق الله عليهم فيكون ذلك زيادة لهم في أمورهم وقوة »2.

وفي هذا الخصوص يقول الطوسي في اللمع: « الآيات لله، والمعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء ولخيار المسلمين»3

ومن الفوارق الموجودة بين المعجزة والكرامة أنّ المعجزة تقترن بالدعوة والتحدي عكس الكرامة، وفي هذا يقول أبو بكر الأشعري: « إنّ المعجزات تختص بالأنبياء، والكرامات تكون للأولياء، كما تكون للأنبياء ولا تكون للأولياء معجزة، لأنّ من شرط المعجزة اقتران دعوة النبوة بها، والمعجزة لم تكن معجزة لعينها، وإنما كانت معجزة لحصولها على أوصاف كثيرة، فمتى اختل شرط من تلك الشرائط : دعوة النبوة، والوحي لا يدعي النبوة، فالذي يظهر عليه لا يكون معجزة»4

فالنبي مطالب بإظهار معجزاته قصد الاحتجاج بها على الخلق، والمشركين، أما الولي فلزام عليه الكتمان والستر. فمعجزات الأنبياء لإقامة الحجة، أما كرامات الأولياء فهي للاحتجاج على نفوسهم حتى تطمئن.

---

1 مُحَّد عابد الجابري: بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص 361

2 أبو بكر مُحَّد الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف، ص 46

3 السراج الطوسي : اللمع، ضبط و تصحيح: كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001، ص 273

4 القشيري : الرسالة القشيرية، ص 379

3 – إثبات جريان الخوارق و الكرامات على أيدي أولياء الله:

اهتمت كتب طبقات الصوفية ومؤلفات شيوخها المتقدمين بجمع مناقبهم وحكمهم، كما تخصصت مؤلفات أخرى في سرد كراماتهم التي تناقلتها الألسن من المريدين والأتباع، فتخصصت دون غيرها في سرد أفعالهم الغير طبيعية والتي صنعت من الولي الصّوفي كائنا خارقا، له من الخوارق ما جعله يسمو عن البشر. «وقد اعتبر المتصوفة الكرامة هبة الله إليهم بعد إخلاصهم وصدقهم وطول صبرهم، فهم أولياؤه الذين خصهم بمحبته وولايته وبأنواع الكرامات وجعلهم آية إظهار فعله»1

فالكرامة واحدة من القضايا العقدية التي تستلزم الإقرار والاعتقاد بها، عند أهل السنة والجماعة. إذ يتفق علماء المذهب السني على جريان الكرامة على أيدي أولياء الله في أرضه.« فأهل السّنة والجماعة يعترفون بكرامات الله لأوليائه إجمالا وتفصيلا»2

وفي هذا يقول ابن تيمية في مجموع الفتاوى :« ومن أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات، في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات، كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة »3

ومن مثبتي كرامات الصوفية القشيري إذ يقول:« فالقول بجواز ظهورها على الأولياء واجب، وعليه جمهور أهل المعرفة ولكثرة ما تواتر بأجناسها الأخبار والحكايات صار العلم بكونها وظهورها على الأولياء في الجملة علما قويا انتفت عنه الشكوك »4.

والأقوال في إثبات كرامات الصوفية كثيرة، نرصد منها أقوال أئمة المذهب السّني على كثرتها. يقول الإمام اللقاني:« يجب عليك أيها المكلف أن تعتقد حقية كرامات الأولياء بمعنى جوازها و وقوعها، كما هو الحق عند جمهور أهل السنة »5

ويقول الإمام الصّاوي « ممّا يجب اعتقاده ثبوت الكرامات للأولياء، أي: فهي واقعة شرعا جائزة عقلا»6

---

1 فريدة مولى: الفعالية التأويلية في الخطاب الصوفي من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجريين، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر2، 2013، ص 136

2 عبد الرحمن السعدي: التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية، إدارة البحوث العلمية و الإفتاء، الرياض، 1993، ص 128

3 تقي الدين ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج 3، ص 156

4 القشيري : الرسالة القشيرية، ص 380

5 اللقاني : شرح الناظم على الجوهرة، ص 912

6 أحمد الصاوي: شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، تح و تع: عبد الفتاح البزم، دار ابن كثير، دمشق، 2003، ص 344

وهو رأي الإمام اللامشي: « كرامات الأولياء ثابتة عند أهل السّنة »1. ويضيف على هذا «والحكايات في بيان كرامات الأولياء عن الثقات مستفيضة لا وجه إلى انكارها»2. كما يرى الإمام المتولي أنّ مذهب أهل الحق جواز ظهور ما يخرق العادة على أيدي الأولياء على سبيل الكرامة»3

من خلال الشواهد السابقة يتضح جليا أنّ مذهب جماهير أهل السنة يقرّ بجواز كرامات الأولياء ويثبتونها بأدلة مرجعها النقل والعقل. فالآيات القرآنية والأخبار التي تتحدث عن جواز حدوثها من عصر النبي ومن بعده، دلائل يستند إليها أصحاب هذا المذهب وهذا ما سنستقصيه في المبحث التالي:

أدلة إثبات كرامات الأولياء:

يذهب من يقول بإثبات الكرامات للأولياء إلى أنّ ما يمكن أن يكون مقدورا فهو جائز الوقوع. وفي هذا يقول النبهاني صاحب «جامع الكرامات»: «الذي يدلّ على جواز كرامات الأولياء: القرآن، والأخبار، والآثار، والمعقول»4 وللتدليل على قوله يضيف :« لو امتنع إظهار الكرامة لكان ذلك إمّا لأجل أنّ الله ليس أهلا لأن يفعل مثل هذا الفعل، أو لأجل أن المؤمن ليس أهلا لأن يعطيه الله هذه العطية، والأول قدح في قدرة الله وهو كفر، والثاني باطل»5. ومن الدلائل العقلية التي يسوقها أصحاب هذا الرأي نجد القشيري الذي قال : « والدليل على جوازه أنه أمر موهوم حدوثه في العقل لا يؤدي حصوله إلى وقع أصل من الأصول، فواجب وصفه، سبحانه بالقدرة على إيجاده، وإذا وجب كونه مقدورا لله، سبحانه، فلا شيء يمنع جواز حصوله»6

وممّن يدعم هذا الرأي، الإمام المتولي إذ يقول :«والدليل عليه أن الأصول الخارقة للعادة مقدورة من الله تعالى وليست تستقبح عقلا وليس فيها قدح في المعجزات على ما تذكره، فالقول بامتناعها لا وجه له»7

---

1 أبو الثناء اللامشي: التمهيد لقواعد التوحيد ،تح : عبد المجيد تركي ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1995، ص 90

2 نفسه، ص 91

3 عبد الرحمن المتولي: عبد الغنية في أصول الدين، تح: عماد الدين أحمد، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1987، ص 152

يوسف النبهاني: جامع كرامات الأولياء، تح: ابراهيم عطوة عوض، مركز أهلسنة بركات رضا فوربندر غجرات، الهند، 2001، ص 415

5نفسه، ص 12

6القشيري: الرسالة القشيرية، ص 378

7المتولي : الغنية في أصول الدين، ص 152

وحتى يثبت الإمام اللقاني جواز حدوث الكرامة يقول: « ظهور الخارق المذكور أمر ممكن في نفسه، وكل ما هو كذلك فهو صالح لشمول القدرة لإيجاده، ودليل جواز ذلك الأمر وإمكانه»1. فالقدرة الإلهية مطلقة إذا ما جاز وقوعه كمعجزات للأنبياء عليهم السّلام جاز وقوعه كرامة لأولياء الله في أرضه. فهو غير مستحيل في قدرة المولى عزّ وجل، إنما هو من قبيل الممكنات وفي هذا يقول الشيخ الماجري الينصاري: « لو امتنع الجواز لما وقع، وقد وقع فلا يمتنع، بيان الملازمة أنّ خوارق العادات كلّها مقدورة الله تعالى ابتداء، والقدرة لا تتخصص ببعض الممكنات دون بعض »2 منه فهي من المقدورات والممكنات فلا مانع عقلي لجواز حدوثها أو التصديق بها.

وهو رأي ابن عطاء السكندري، ولنا أن نسوق قوله: «أمّا الجواز فلا خفاء أنّ ظهور الكرامة من الممكنات، لأنه لو لم يكن من الممكنات ، فإمّا أن يكون من الواجبات، وما أن يكون من المستحيلات، وباطل أن يكون من المستحيلات فإن المستحيل هو الذي لو قدر وجوده لزم منه محال عقلي»3 ويضيف: «كل شيء كان من الجائزات لا يحيله العقل، وكل ما لا يحيله العقل ولم يرد بعدم وقوعه نقل فجائز أن يكرم الله به أولياءه»4

إضافة للأدلة العقلية التي ساقها أصحاب هذا الرأي في إثبات الكرامات وجواز حدوثها. استندوا إلى نصوص التشريع الإسلامي قرآنا وسنة، والتي تجمع كلها على ذكر جريان الخارق للعادة على أيدي أولياء الله الصالحين من أهل الورع والتقوى والصلاح.

ومن النماذج المذكورة في التنزيل الحكيم، قصة مريم عليها السلام، يقول تعالى:«كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ». (آل عمران:37)

ففي قصة مريم ابنة عمران والتي يتفق أهل العلم أنها ليست نبيّة ولا رسولا من عند الله، بل هي وليّة من أولياء الله. صديقة قانتة أتاها الله كرامة لا مثيل لها. وعنها يقول صاحب الكواكب الدريّة : « وقصة مريم حيث حملت بلا ذكر، ووجد الرزق عندها بلا سبب، وتساقط عليها الرّطب من شجرة يابسة»5.

1اللقاني : شرح الناظم على الجوهرة، ص 913

2أحمد المزيدي: جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة و بعد الانتقال، دار الآثارالإسلامية، بويلي، سريلانكا، 2006، ص31

3 السكندري : لطائف المنن، ص 66

4 نفسه ، نفس الصفحة

5 المناوي : الكواكب الدرية، ص 5

وفي قوله تعالى: « وَإِذَا قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ». (آل عمران:42)، يقول الإمام البيضاوي : «كلموها شفاها كرامة لها»1 وعن هذا يضيف: «وتخصيصها بالكرامات السّنية كالولد من غير أب وتبرئتها مما قذفتها به اليهود بإنطاق الطفل، وجعلها وابنها آية للعالمين»2. فمن خلال قصة مريم، يستدل المثبتون بصحة وجواز الكرامات على أولياء الله الصالحين.

ومن النماذج التي يحفل بها النص القرآني قصة أهل الكهف وما فيها من خوارق خارجة عن المألوف والطبيعة، يقول تعالى «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا* إِذْ أَوَى الفِتْيَةَ إِلَى الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَنَا آتِنَا مِنْ لَدُنِكَ رَحْمَةً وَهَيِئ لَنَا مِنْ أَمْرِكَ رَشَدًا* فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا».(الكهف: 9-10-11)

وعن هذه الآيات يقول المناوي: «كقصة أهل الكهف، حيث أقاموا فيها ثلاث مئة سنة وأزيد نياما أحياء بلا آفة ولا غذاء، وليسوا بأنبياء بإجماع الفرق»3. وإن دلّ على شيء فعلى ثبوت الكرامة فيهم ليبقوا آية من آياته عز وجل، وكرامة من كراماته في عباده الصالحين.

كما وردت قصة آصف وزير سليمان عليه السلام وإحضاره لعرش الملكة بلقيس كما ورد في قوله تعالى:« قَالَ الذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَ إِلَيْكَ طَرَفَكَ».(النمل:40)

وهي الآية التي استدل بها المناوي في إثبات الكرامات بقوله:«وقصة آصف حيث أحضر عرش بلقيس من مسافة بعيدة في طرفة عين»4 ومعلوم أنّه ليس بنبي ولا رسول ولا مؤيّد بالمعجزات، فإنما هي كرامة من عند الله.

هذه هي بعض من القصص الواردة في آيات الله المثبة لحقيقة جواز الكرامات والتي استند عليها أصحاب هذا الرأي في إثبات ما يذهبون إليه للرد على الجاحدين والمنكرين لكرامات أولياء الله.

4 – نفي جريان الخوارق و الكرامات على أيدي أولياء الله:

نقلت كتب طبقات الصّوفية كثيرا من أقوال خصومهم النافين لحقيّة وجواز ظهور الكرامات على أيدي الأولياء. وإن دلّ هذا على شيء فهو أنّ انكار كرامات الأولياء مسألة احتدم عليها النقاش منذ القدم. قدم الصوفية ورجالها.

1 عبد الله بن عمر: أنوار التنزيل و أسرار التأويل، دار الرشيد، دمشق، 2000 ، ص 262

2 نفسه ، الصفحة نفسها

3 المناوي : الكواكب الدرية، ص 5

4 نفسه ، نفس الصفحة

فهذا الطوسي يقول نقلا عن شيخه : « قال أهل الظاهر: لا يجوز كون هذه الكرامات لغير الأنبياء عليهم السّلام لأنّ الأنبياء مخصوصون بذلك، والآيات والمعجزات والكرامات واحدة، وإنما سميت معجزات لإعجاز الخلق عن الإتيان بمثلها، فمن أثبت من ذلك شيئًا لغير الأنبياء عليهم السلام فقد ساوى بينهم ولم يفرق بين الأنبياء وبينهم»1

وممن أشار لقضية نفي كرامات الأولياء .النبهاني- في كتابه جامع كرمات الأولياء، وعن الشبهة الأولى التي يسوقها النافون يقول: « وهي التي عليها يعولون وبها يضللون، أنّ ظهور الخارق للعادة جعله الله دليلا على النبوة، فلو حصل لغير نبي لبطلت هذه الدلالة، لأنّ حصول الدليل مع عدم المدلول يقدح في كونه دليلا»2. وعن حججهم الأخرى يضيف: « قولهم : إذا جاز ظهور الكرامة على بعض الأولياء جاز ظهورها على الباقين، فإذا كثرت الكرامات حتى خرقت العادة، جرت وفقا للعادة، وذلك يقدح في المعجزة والكرامة»3.

ويقول الجويني الشافعي :« فمما تمسك به نفاة الكرامة أن قالوا : لو جاز انخراق العادة من وجه، لجاز ذلك من كل وجه، ثم يجر مقاد ذلك إلى ظهور ما كان معجزة لنبي على يد ولي، وذلك يفضي إلى تكذيب النبي المتحدي بآيته، القائل لمن تحداه، لا يأتي أحد بمثل ما أتيت به. فلو جاز إتيان الولي بمثله، لتضمن ذلك نسبة الأنبياء للافتراء»4

ومن الأئمة الذين نقلوا آراء المنكرين للكرامات، الإمام النسفي القائل: «قالت المعتزلة والرافضة والجهمية لعنهم الله: كرامات الأولياء باطلة، أمّا معجزات الأنبياء ثابتة صحيحة، واحتجوا وقالوا: «لو قلنا بأن كرامات الأولياء ثابتة لبطلت معجزات الأنبياء ولا يكون فرق بين الأنبياء والأولياء»5

يعدّ الموقف الإعتزالي واحدا من الاتجاهات الكلامية التي عرفتها الساحة الدينية في الإسلام. والتي اتهمت بالمغالاة في استخدام العقل في شتى المسائل العقائدية. ويبدو الموقف الإعتزالي تجاه قضية الكرامات وصحة ثبوتها، ومدى شرعيتها متأرجحا في قولين : الاتجاه الأول يذهب فيه أصحابه لقبول المعجز من جهة العقل. لكن الاتجاه الثاني وهو الغالب يذهب لمنع ظهور الكرامات على الصالحين، خصوصا إن بلغت درجة الخارق للعادة. فجمهور المعتزلة يشددون على أنّ الأمور المعجزة والخارقة

1 الطوسي: اللمع، ص 275

2 النبهاني : جامع كرامات الأولياء ، ص 21

3 نفسه ، ص 22

4 عبد الملك الجويني: الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ص 129

5 أبو المعين النسفي : بحر الكلام، تح : مُحَمّد السيد البرسيجي، دار الفتح للدراسات و النشر، 2014، 181

للعادة هي من اختصاص الأنبياء دون غيرهم. وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار:« لو كانت تظهر على الصالحين، لكانت بأن تظهر على السلف الصالح من كبار الصحابة أولى بأن تظهر على غيرهم ممن يشك في حالهم. وقد صح وثبت بتواتر الأخبار أنها لم تظهر عليهم، ولأن القوم لم يدعوا ذلك فيهم»1. فالقاضي ينفي نفيا قاطعا ظهور الخارق من العادات على غير الأنبياء، وفي هذا يقول: « لأن الغرض أن نبين أن ظهوره على غير الأنبياء لا يجوز»2.

ومن الأدلة التي يعتمد عليها المعتزلة في نفي الكرامات وخوارق العادات عن الأولياء، هو أنّ الإقرار والاعتراف بها يحدث إلتباسا ويثير الريبة والشبهات بين النبي والولي. فحدوث الخارق للعادة لا يتأتى سوى للأنبياء. لأن طريق معرفتهم والتصديق بهم إنما يرتبط بحدوث المعجز والخارق على أيديهم.

كما أن ثبوت خوارق العادات لدى الأولياء وكثرتها واستمرارها عبر العصور، يخرجها عن نطاق الخارق للعادة. ويدخلها في دائرة المتكرر وكل فعل متكرر لايجوز إطلاق عليه .الناقض للعادة .

كما أنّ ظهور فوارق العادات على الأولياء فيه تنفير على الأنبياء. لأن طاعة الأنبياء مقترنة بإتيانهم المعجز من الأفعال. فمتى ظهرت هذه الأفعال في غير الأنبياء هان موقعهم في نفوس الأتباع. وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار: «إنّ ظهور المعجز على غير النبي وإن لم يكن قادحا في دلالته على نبوة من ظهر عليه، فإنه مفسدة؛ لأنه ينفر عن النظر في أعلام الأنبياء»3 الذين فضلهم المولى عن باقي خلقه، وخصّهم عن غيرهم من البشر.

خاتمة :

يدل تباعد مواقف الفرق الإسلامية حيال كرامات الأولياء على المنزلة التي تحتلها في الفكر الإسلامي منذ بزوغه. فقد عرفت هذه المسألة مناقشات شديدة اللهجة، تراوحت بين الإثبات والإنكار و بين التجويز والرفض.

فالفكر الصوفي قائم على الإيمان بجواز الكرامات و وقوعها. غير أن الصوفية يفصلون بين الكرامة والمعجزة، و يحرصون على سريتها، ويعتبرون خوارق الأولياء تأييدا ربانيا لرسالات الأنبياء. ولا شك في حقية حدوثها للولي ما دام ورودها في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي لا مجال لردها و الشك فيها.

فالفكر الصوفي غزير من حيث التأليف، ومن المؤلفات التي جمعت سير وكرامات الأولياء وأرخت لها نذكر: التشوف لرجال التصوف للزيات، التعرف لمذهب التصوف للكلاباذي، وروض الرياحين في

1 عبد الجبار القاضي: المغني في أبواب التوحيد، تح : محمود محمّد قاسم، ص 241

2 نفسه ، ص 218

3 القاضي : عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد، ص 223

حكايات الصالحين لليافعي، جامع كرامات الأولياء لإسماعيل النبهاني... وغيرها كثير. ففي متون هذه المؤلفات ذكر التراث الكراماتي و آراء في وجوب التصديق به.

كما هو موقف التيار السني بالإجمال، فهو يعترف بكرامات الصوفية و يجيز حدوثها، فالمنظور الفقهي السني يجيز حدوث الكرامة بأن يظهر في أفعال الولي معجز وخارق من العادات فهو أمر ثابت دلت عليه الأخبار والآيات البينات، وتناقلته المرويات، ولا ينكرها سوى جاحد مبتدع.

غير أن الفكر الإسلامي يسجل اتجاها مخالفا، منكرا لكرامات الأولياء، فهذا التيار يستند لحجج عقلية بالأساس فيما يذهب إليه. وتحمل الفرق الكلامية على عاتقها مسألة نفي وقوع الظواهر غير الطبيعية على الأولياء، إذ تحتج بأن جواز الكرامات على البشر يؤدي إلى اشتباهها بالمعجزة التي هي من اختصاص الأنبياء و الرسل. وإن صحت هذه الكرامات على الأولياء سيؤدي حتما للالتباس، إذ كيف نفصلهم ونميزهم عن أنبياء الله المرسلين. و هي الحجج التي تبناها جمهور كبير من المعتزلة كالقاضي عبد الجبار في نفي الكرامات وما يرافقها من الأفعال الخارقة الناقضة للمألوف.

وعلى هذا، تراوح الموقف من مسألة الكرامات بين اتجاهين: الأول يعتقد بوقوعها ويجيز حدوثها فهي بغير مستعصية على قدرة الخالق، وجاءت النصوص بذكرها و هو ما يجعلها مسألة جائزة. وأما الثاني فيرفض الكرامة باعتبار ملكة العقل التي ترفض الخوارق التي فيها، فهي تثير القلق والحيرة في العقول، إذ هي قصص وخرافات تثير الريبة والشك في النفوس، وبناء على هذا فردها وعدم القبول بها والتصديق بحكاياتها أمر جائز كذلك.

قائمة المصادر و المراجع:

القرآن الكريم

1_ ابن تيمية، تقي الدين: مجموع الفتاوى، ج3، د ت

2_ ابن منظور، مُحَمَّد بن مكرم: لسان العرب، م1، دار صادر، بيروت، د ت

3_ الجابري، مُحَمَّد عابد: بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009

4_ الرشيد، عبد العزيز الناصر: كتاب التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية، دار الرشيد للنشر و التوزيع، الرياض، ط2، ، 1995.

5_ الزمخشري، أبوالقاسم: أساس البلاغة، تحقيق: مُحَمَّد باسل عيون السود، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998.

6_ السعدي، عبد الرحمن ناصر:التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة، إدارة البحوث العلمية و الإفتاء، الرياض، 1993.

7_ السكندري، ابن عطاء الله: لطائف المنن، تحقيق: عبد الحليم محمود، القاهرة، 2006، ط 3.

8_ الصاوي، أحمد: شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، تحقيق و تعليق: عبد الفتاح البزم، دار ابن كثير، دمشق، 2003.

9_ الطوسي، السراج: اللمع، ضبطه و صححه: كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001.

10_ عبد الله بن عمر: أنوار التنزيل و أسرار التأويل، دار الرشيد، دمشق، 2000.

11_ الفيروز آبادي: القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1980.

12_ القاضي، عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد، تحقيق: محمود مُحَّد قاسم، د ت.

13_ القشيري، أبو القاسم عبد الكريم: الرسالة القشيرية، حواشي: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001.

14_ الكلاباذي، أبو بكر: التعرف لمذهب أهل التصوف، نشر و تصحيح: آرثر جون أربري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994.

15_ اللامشي، أبو الثناء: التمهيد لقواعد التوحيد، تحقيق: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.

16_ اللقاني، برهان الدين ابراهيم: شرح الناظم على الجوهرة، تحقيق: مروان حسن عبد الصالحين البجاوي، دار البصائر، القاهرة، ط1، 2009 .

17_ المتولي، عبد الرحمن: الغنية في أصول الدين، تحقيق: عماد الدين أحمد، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1987.

18_ المزيدي، أحمد فريد: جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة و بعد الإنتقال، دار الآثار الإسلامية، بريلي، سريلانكا، 2006.

19_ النبهاني، يوسف بن إسماعيل: جامع كرامات الأولياء، تحقيق: ابراهيم عطوة عوض، مركز أهلسنة بركات رضا فوربندر غجرات، الهند، 2001.

الرسائل الجامعية :

1_ مولى، فريدة: الفعالية التأويلية في الخطاب الصوفي من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجريين، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر 2، 2013.